المحاضرة الثانية

العمارة في صدر الإسلام

تتمثل نقطة البداية في تاريخ العمارة الإسلامية في دار الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة بعد هجرته إليها، ثم ما توالى عليها بعد أن تحولت إلى مسجد من إضافات وتعديلات ومن مراحل تطور حتى انتهى إلى شكله النهائي في أيام عثمان بن عفان وذلك عام 26هـ (646م) والذي صار نموذجاً يحتذي به المسلمون في تشييد مساجدهم في أنحاء العالم الإسلامي، ثم ما انبثق من بعد ذلك من أنواع مختلفة من المشيدات واكبت مسيرة الحضارة في مراحل تاريخها المختلفة.

تصميم المسجد النبوي في المدينة المنورة:

أسّس المسجد في سنة 1هـ الموافق 622م، وكان طوله يومئذٍ ما يقارب 35 متراً، وعرضه 30 متر، فتكون مساحته 1050 متراً مربعاً، وكان سقفه بارتفاع 2.5 متراً تقريباً. وكانت أعمدة المسجد من جذوع النخل وسقفه من الجريد (أغصان النخيل)، وأساسه من الحجارة، وجداره من اللبن (الطوب النيء الذي لم يُحرق بالنار)، وجعل وسطه فناء. وجعل للمسجد 3 أبواب: باب الرحمة ويُقال له باب عاتكة (في جهة الغرب)، وباب عثمان ويُسمى الآن باب جبريل الذي كان يدخل منه النبي(في جهة الشرق)، وباب في المؤخرة (في جهة الجنوب)، وجعل قبلة المسجد لبيت المقدس، ولما تحوّلت القبلة للكعبة في السنة 2هـ، سُدّ الباب الذي كان في المؤخرة وفُتح باب في مواجهته في الجهة الشمالية.

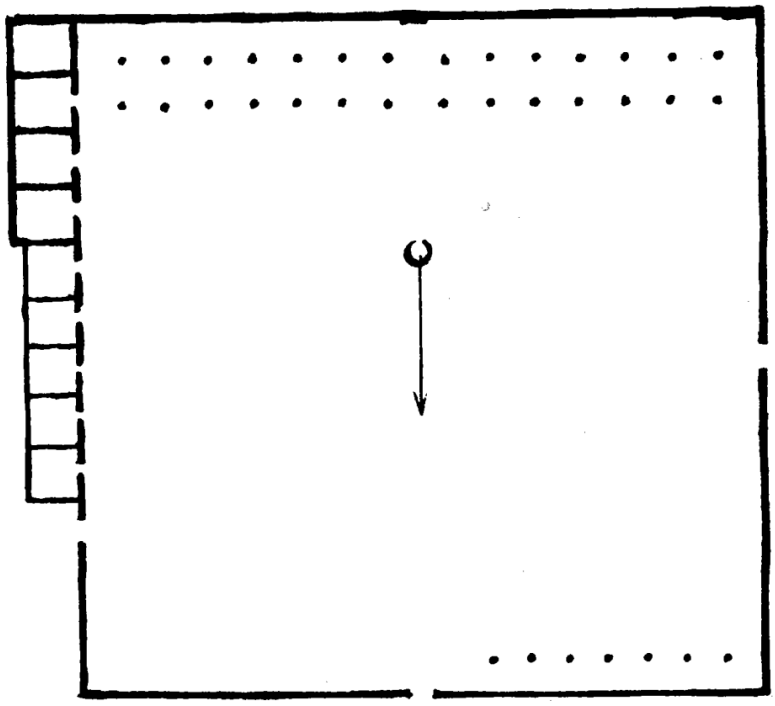

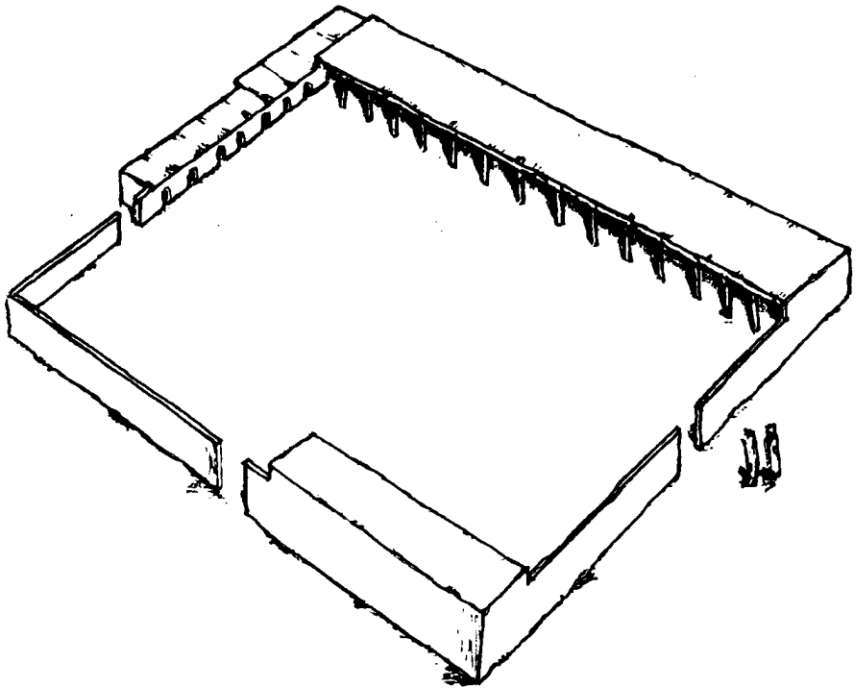

مسجد المدينة أيام الرسول

من الجدير بالذكر أن دار الرسول قد خططت في أول مراحلها في بساطة كبيرة واقتصاد شديد يتفقان مع الظروف التي كانت محيطة آنذاك بالمسلمين، وكان تخطيطها على يد الرسول والمسلمين من مهاجرين وأنصار.

بدأت الدار بحجرتين من جدران من اللبن والطين أمامهما فناء كبير يحيط به أسوار شيدت من اللين وترتفع أكثر قليلا من قامة رجل. ثم زاد عدد الحجرات إلى أربع ثم إلى تسع.

وأضاف الرسول الكريم ظلة أخرى أكبر بطول الجدار الجنوبي كله للفناء، وذلك عندما نزلت الآية الكريمة بالأمر بالاتجاه إلى الكعبة عند الصلاة وبذلك تحول فناء الدار إلى صحن لأول مسجد شيد بالبناء في العصر الإسلامي.

ثم وسعه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان بعد نحو عشرين عاماً فأضاف ثلاث ظلات أخرى وبذلك أصبح الصحن محاطاً بأربع ظلات، تمتاز تلك التي في ناحية القبلة بعمق أكبر من بقية الظلات، ولذلك فإنه لا يمكن أن يتطرق أي شك في أن التخطيط قد اتخذ شكلاً معمارياً واضحاً منذ أول العصر العربي الإسلامي، وذلك من قبل أن تتم الفتوح الإسلامية ويحتك الفاتحون بالحضارات والطرز المعمارية المعاصرة.

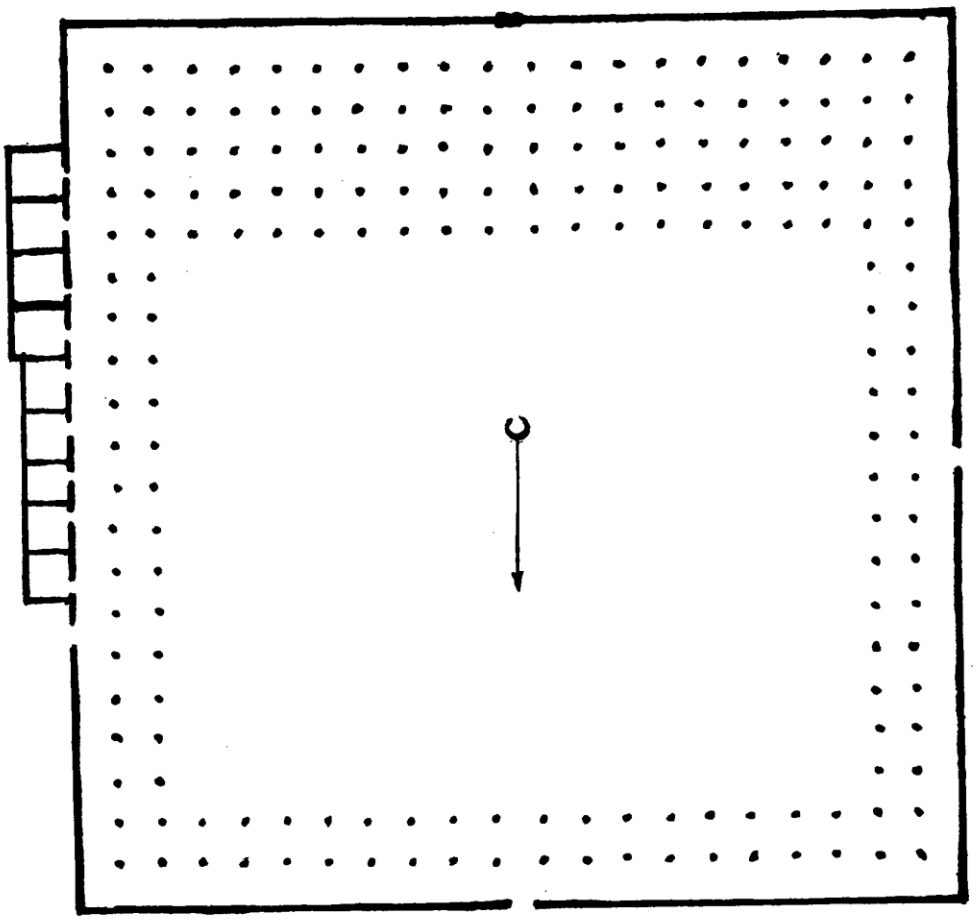

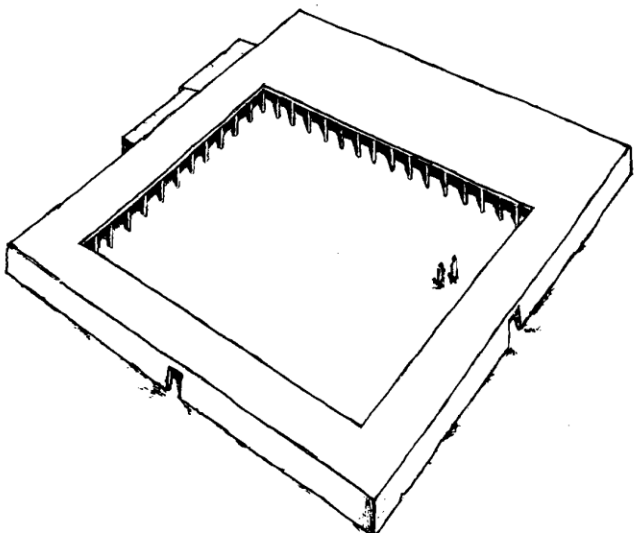

مسجد المدينة أيام عثمان بن عفان

إن تصميم المسجد النبوي لم يخضع لأي تأثيرات من الحضارات الأخرى وطرزها المعمارية، وأصبح ذلك التصميم على بساطته الكبيرة نواة للعمارة الإسلامية سواء للمساجد أو لغيرها من المشيدات الدينية والمدنية ، فالأساس في عمارة صدر الإسلام عامة هو التصميم أما الأناقة في البناء والزخرفة فإنها تعد ثانوية بالنسبة إلى تلك المرحلة، فالرسول الكريم وأتباعه قد تحاشو الإندفاع وراء التأنق في الوقت الذي تركزت فيه كل جهودهم وإمكانياتهم الذهنية والمادية على نشـــر الدعوة ، وعدم العناية بالزخرفة الخارجية لم يكن لخلو الجزيرة العربية من الأناقة والدراية بالأساليب المعمارية كما يدعي المستشرقون، لكنه كان مرتبطاً بالقيم التي كانتسائدة في العصر الأول حيث التركيز على المضمون.

وما أن بدأت الأحوال الاقتصـــادية تزدهر ابتداء من عصـــر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حتى بدأت التغيرات تظهر على العمارة الإسلامية في الشكل والمضمون. وكان المعماريون في هذه المرحلة المبكرة يمارســـون البناء وفنونه بناء على ثقافة وتقاليد متوارثة من الفترات السابقة للإسلام ، إلا أن الدين الإسلامي أدخل عناصر إضافية جديدة في تصميم المباني تتناسب مع المعتقدات الجديدة ومتطلبات المجتمع الجديد.

ومنذ صدر الإسلام وعقب الفتوحات التي تمت في مناطق الحضارات الواقعة إلى الشمال ، شـــهدت الجزيرة العربية اتصـــالاً كبيراً وجوهرياً بالبلدان التي كانت تمثل مســـرحاً لآخر ما توصلت إليه الحضـــارة الإنســـانية آنذاك . وقد كانت تلك البلدان في ذلك العصـــر هي الأكثر تطوراً في مختلف المجالات.

وبعد توسع الدولة الإسلامية توالت قوافل الحجاج قادمة من البلاد المفتوحة متوجهة إلى مكة والمدينة المنورة فحدث امتزاج وتزاوج ثقافي كان من نتائجه انتقال كثير من عناصـــر الثقافة المعمارية إلى المدينتين المقدستين وإلى المناطق الحضرية التي لها اتصال مباشر بطرق الحج وخدمات الحجيج.

في عهد الرسول الكريم كانت العمارة تتسم بالبساطة في تصميمها ومواردها متوازية في ذلك مع المستوى الاقتصادي لتلك المرحلة. ومع ذلك فقد كان للبناء والعمارة في ذلك الوقت نصيب من التطور والإضـافة فكان من الابتكارات في التسمية والوظيفة المسـجد الذي أمر الرسـول ببنائه ليكون مكاناً للعبادة ومقراً للاجتماع و التشـاور والتوجيه والإعلام. وقد أصـبح المسـجد فيما بعد جزءاً أساسياً في العمارة الإسلامية ورمزاً للمدن الإسلامية والثقافة الإسلامية، وللبناء الذي نشأت فيه معظم الابتكارات في فن العمارة الإسلامي.

بناء المدن في صدر الإسلام:

أدت التطورات التي صـــاحبت حركة الفتوحات الإســـلامية في عهد عمر بن الخطاب إلى تأســـيس عدد من المدن أو القواعد العسكرية التي تحولت فيما بعد إلى مدن، وكان لتأسيس تلك القواعد أثره في تطور عمارة المدن الإســـلامية، أول هذه المدن هي البصـــرة التي بنيت عام 12هـــــ/633م، والكوفة التي بنيت عام 17هـ/638م، وتلتها الفسطاط عام 21هـ/642م

مدينة الفسطاط – مصر:

تاريخ الإنشاء: بناها عمرو بن العاص عقب فتح مصر عام 642م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

الموقع: تقع على ساحل النيل في طرفه الشمالي الشرقي قرب القاهرة بحوالي ميلين، في موقع مزارع بين النيل والجبل الشرقي (الذي يعرف اليوم بجبل المقطم) وليس فيها من العمران إلا حصن نابليون الذي يطل على النيل من بابه الغربي.

كان اختيار عمرو بن العاص لهذا الموقع من أجل:

1- حصانته الطبيعية إذ تحميه تلال المقطم من الشرق والجنوب ويحميه من الغرب خندق مائي طبيعي هو نهر النيل.
2- إشرافه على طرق الملاحة في فروع النيل وعلى جميع طرق القوافل في الصحراء مما يسهل انتقال الجيوش منها إلى أي جهة.
3- وجود إمكانية للتوسع المستقبلي للمدينة في الشمال (حيث عندما أريد توسعتها بنيت العسكر ثم القطائع فالقاهرة ثم العباسية ثم مصر الجديدة فمدينة نصر) إذا كانت الفسطاط مدينة ديناميكية تمكنت من البقاء والتوسع حتى يومنا الحالي.

تخطيط المدينة:

بدأت أولى الخطوات في تخطيط المدينة بإنشاء المسجد الجامع (الذي يعرف اليوم بجامع عمرو بن العاص) والتفت حوله بقية المراكز العمرانيةنظراً لأهميته في الحياة السياسية والإدارية لوقوعه بجوار دار الإمارة.

ولما وجد عمرو بن العاص أن القبائل تتنافس على المواضع المحيطة بالمسجد اختار أربعة من قواده يمثلون القبائل الكبرى وقسم الخطط بينها وباشر توزيع القبائل على الخطط.

وأخذت خطط الفسطاط في أول عهود الإسلام قدراً من الخصوصية يعكس لنا حياة الناس في هذه المدينة، فبرز حرص المسلمين على الحفاظ على حرماتهم، بعدم بناء نوافذ كبيرة مطلة على الشوارع، وإنما كانوا يستمدون الضوء من فناء كبير بداخل المنزل، وكانت البيوت من طابق واحد في بداية إنشائها، ثم بدأت تتكون من أكثر من طابق .

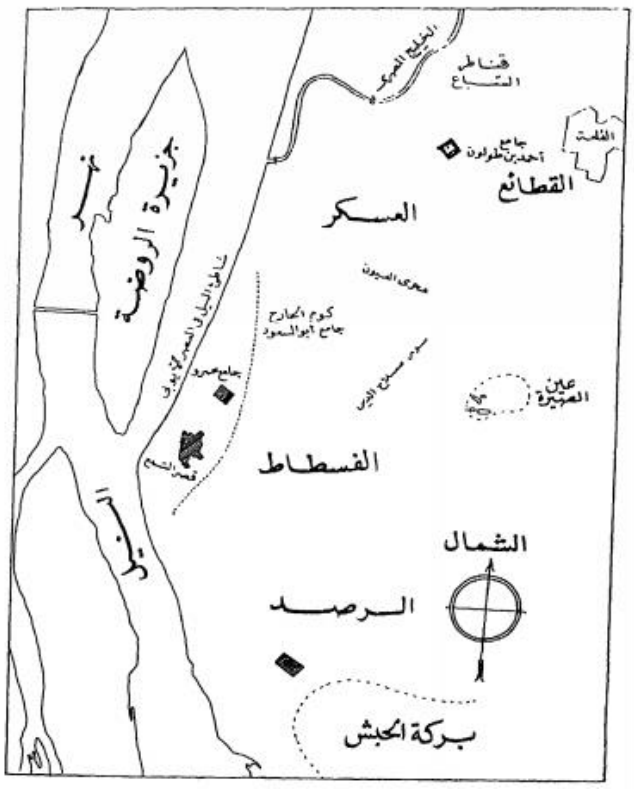

موقع مدينة الفسطاط

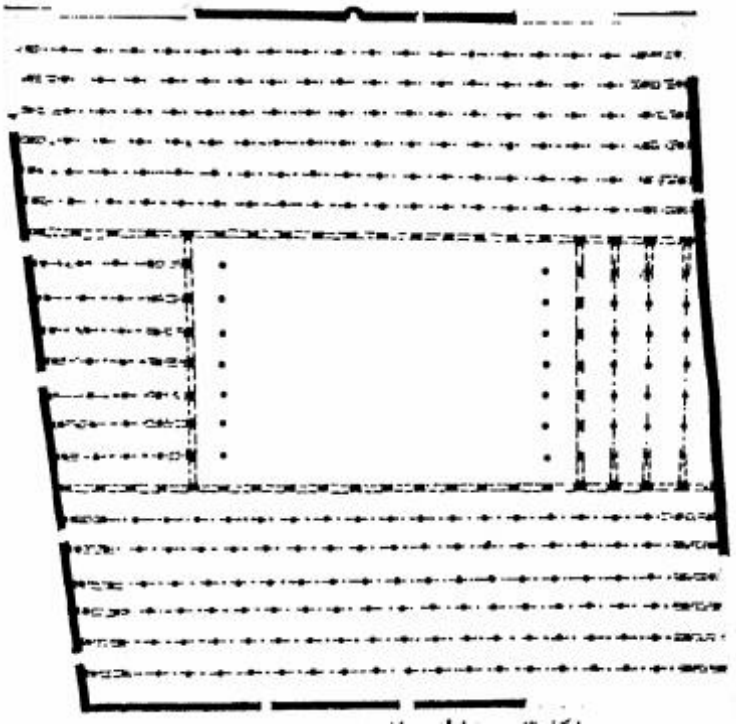

مسقط أفقي لجامع عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط

أحد المنازل القديمة في مدينة الفسطاط بعد إعادتها إلى شكلها الأصلي